ثورات في سجن النساء
من قاسم أمين الى نزار قباني

حوار مع نزار قباني

أجراه
محي الدين صبحي

لكي أظهر لك كم أن قضية تحرير المرأة مزيفة، أحيلك الى النساء المثقفات. ألا ترى أن المرأة العربية المثقفة لا تجعل من تحرير المرأة قضيتها؟ - دعني أرسم لك الخطوط العريضة لمسار المرأة المثقفة في بلادنا - : انها تبدأ مسيرتها في الحياة العامة بنشر بعض الشعر المنثور، ثم تتطور فتكتب بعض القصص القصيرة، أو رواية متوسطة الحجم والقيمة، وقد تكتب بعض المقالات للمؤتمرات النسائية، وعنها... فاذا حققت لنفسها مركزاً مرموقاً وحصلت على زوج متميز، استمرأت وضعها وتحولت الى سيدة صالون!

هذه الحالات أكثر من أن تحصى على امتداد المجتمع العربي في أراضي الوطن وحتى في المهجر، وما عداها هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

لو أردنا ان نطلق الرصاص على المثقفات (والمثقفين أيضاً) لما أصاب الرصاص أحداً..
ذلك ان الثقافة، بمعناها الأكاديمي الكبير، هي طريقة حياة.. وموقف جديد من العالم.
ولا يستحق كلمة (مثقف) من يكتفي (بالفرجة) على نهر الحياة دون أن يموت بللاً.. أو يموت غرقاً.

إن فأر المكتبة هو دائرة معارف، ويطالع كل يوم عشرات الكتب في الفلسفة، والأدب، والتاريخ، والرياضيات، والعلوم. ويقرأ كل ما يقع في يده عن الماركسية، والوجودية، والسريالية، والتكعيبية، والحداثة، والقصيدة الالكترونية...

ولكنه برغم ما (يعرفه) فإنه يبقى محكوماً بظروفه (الفأرية).. ولا يستطيع أن يتجاوزها..

هذا الانفصام الرهيب بين الفكرة وبين الفعل.. بين النظرية وبين التطبيق.. بين الحلم النسائي بالانقلاب وبين تنفيذه.. بين التفكير باغتيال الرجل والزواج منه.. بين التشهير بخيانته ونذالته نهاراً.. ومضاجعته ليلاً..

هذه الثقافة المنافقة.. أو هذا النفاق المثقف.. هو سبب بقاء المرأة على (ظهر يد الرجل).. وبقاء الملك شهريار حياً يرزق حتى اليوم..

إن قضية تحرير المرأة لافتة من جملة ألوف اللافتات التي يرفعها العالم العربي ضد الاستعمار والامبريالية والاستغلال والتسلط والقمع..

إنها مظاهرة أو مسيرة من ضمن المسيرات التي مشيناها منذ أربعين عاماً.. دون أن ندري لماذا.. وإلى أين.. ودون أن نتمكن من إخراج امرأة واحدة من سجن النساء...

كل ما قيل في الحرية والتحرر لم يتجاوز حدود اللغة الشعرية..
أما على الصعيد (الميداني) فلم يسقط قتيل واحد.. لا من النساء، ولا من الرجال طبعاً..

المعركة إذن ورقية.. دونكشوتية.. استعراضية..
المرأة استعملت الأدب كنوع جديد من (الماكياج) للإعلان عن نفسها بالصورة والصوت.. وإعلام (من يهمه الأمر) أنها (هنا)....

واسمحي لي أن أقول، بصراحة جارحة، أن بعض نماذج الأدب النسائي التحرري في العالم العربي ليس أكثر من (إعلان زواج) غير مدفوع الأجرة.

أما الرجل، فقد كان يتفرّج بخبث واستخفاف من نافذة منزله على التظاهرة النسائية، وهو يعلم في قرارة نفسه، أنه لو قرأ على المتظاهرات قصيدة حب من شرفته.. لرمين لافتاتهنّ، ومزّقن عرائض الاحتجاج التي يحملنها.. وسقطن على صدره معتذرات باكيات.. أو دخلن الى بيته ليصنعن له فنجان قهوة..

إن الخطّ البياني الذي رسمته في سؤالك لمسيرة المرأة الأديبة في الوطن العربي هو صحيح الى درجة الفجيعة.

واذا تفحصنا بموضوعية وتجرّد، إشراقة وخسوف بعض الأسماء النسائية اللامعة في حياتنا الثقافية منذ الخمسينات حتى اليوم.. لتبيّن لنا أن الأدب لم يكن لديهنّ أكثر من (سيارة أجرة) أوصلتهن الى باب المحكمة الشرعية.. أو الى باب الكنيسة..

ـ سلوك المثقفات المتخاذل، يجعل قضية تحرير المرأة تبدو في منتهى الافتعال حين يطرحها الكتاب والشعراء منذ قاسم أمين الى نزار قباني. فحتى أنت، صاحب أوسع جمهور وأحدثه، تشعر بالعزلة عن قضيتك في تحرير المرأة وعن جماهير النساء اللواتي تريد أن تنطق باسمهن، البرهان تفصح عنه هذه السطور التي افتتحت بها مقدمة «يوميات امرأة لا مبالية». تقول:

«أليس من مفارقات القدر أن أصرخ أنا بلسان النساء، ولا تستطيع النساء أن يصرخن بأصواتهن الطبيعية...

... لماذا تصمتن أيها النساء؟».

أعتقد أن النساء يحسنّ الصراخ لو أردن، كما أن أصواتهن مهيأة لذلك عند الحاجة. وبالتالي فلا حاجة بك لأن تلبس ثياب امرأة او تستعير كحلها.

عندما يدخل الانسان معركة، فإن قناعاته بالانتصار تكون قوية، وايمانه

بالرجم لا يُجادل. والا لما كان هناك حروب ولا محاربون..

في الخمسينات، كان المدُّ التحرري في ذروته القصوى، وكانت الآمال بالوحدة، والتحرر، والتغيير، قناديل تشتعل في داخلنا..

وبالنسبة لي كان الهمّ التحرري شمولياً، بمعنى انني لم أكن أرسم خطوطاً بين التحرر القومي وبين التحرر النفسي والاجتماعي والجنسي للانسان العربي، ولم أكن أتقيد بنظام الأولويّات، وبالترتيب الكرونولوجي للثورات العربية.

والكلام الذي قلته في مقدمة «يوميات امرأة لا مبالية» كُتب في شتاء عام ١٩٥٨، أي في الأشهر الأولى للوحدة بين مصر وسورية بقيادة جمال عبد الناصر.

وفي عصر الكبرياء هذا.. كان الحلم يتّسع لاستيعاب السماء..
واللغة تتسع لكل طموحات الكبار..

ثم جاء زمن الانكسار والإحباطات..
وتفتتت الأحلام، وتفتتت معها الأبجدية والطفولة، وذبلت وردةُ الحرية.
وصار الانسان العربي أكثر عطشاً وجوعاً من جرادةٍ صحراوية..

في الخمسينات، حلمتُ بامرأة أفتش معها الكرة الأرضية ببحارها، وجبالها وسهولها، ولياليها، ونهاراتها، ونجومها، وأمطارها..

في ذلك الوقت كان الحلم جميلاً.. وعادلاً.. ويستحق الموت من أجله..

ولا يمكنك في الثمانينات أن تحاسبني على أحلام الخمسينات..
لا يمكنك أن تمنع طفولتي من ممارسة طفولتها..
ولا يمكنك أن تسألني لماذا لبستُ في الخمسينات ثياب امرأة..
واستعرتُ كحلها وعطرها وأساورها..

في الخمسينات ، كان هناك مسرحية تبحث عن بطل..

وكان قدري أن أخرج من مجتمعات الملاءات.. لأعبّر عما يدور في داخل الملاءات..

لم يفرض عليَّ أحد أن ألعب دوري.. كما لم يفرض أحد على هاملت أن يكون هاملت.. وعلى عُطيل أن يكون عُطيلاً..

كل ما أعرفه انني كنت مقتنعاً بأهمية المسرحيّة ، وبالنصّ المسرحي الذي كنت أتلوه بصوتٍ مرتفع ، وحماسٍ منقطع النظير..

لقد تصوّرتُ في لحظةٍ من لحظات الغرور ، انني أستطيع أن أكون الاسكندر المقدوني ، فأفتح الدنيا.. وورائي جيشٌ من النساء المحاربات..

ولكنني حين التفتُّ الى خلفي ، لأتفقّد مواقع جيشي ، وأطمئنّ على معنوياته ، لم أجد في الخنادق سوى أمشاطٍ مكسورة.. وقوارير عطرٍ فارغة.. وأحذية ذات كعوب عالية من صنع شارل جوردان.. ومانغلي..

إن الحرب ، أية حرب ، تتطلب حدّاً أدنى من التنازلات الجسديّة والاقتصادية والاجتماعية ، كما تفترض التخلّي عن حالة الرفاه.. والدلع.. والاسترخاء.. التي تكوّن عقليّة مجتمعات الحريم.

لكنّ المرأة على ما يبدو ، مسترخية في وضعها الاقتصادي التاريخي ، وغير مهتمّة بتغييره أو تعديله.

إن هدفها الاستراتيجي الوحيد ، هو ان تكون مشتهاةً.. ومرغوباً فيها.. وقادرة على جَذْب الذَكَر ، وتدجينه ، وإخضاعه لنظام المؤسسة..

على هذه الاستراتيجية العامة ، لا تختلف مدام كوري عن بريجيت باردو.. والكاتبة سيمون ده بوفوار عن الراقصة نجوى فؤاد..

المفارقة التي تحيرني في كتابة الداعين الى تحرير المرأة، انهم تصرفوا باستبداد جديد يفوق الاستبداد القديم: ان أحداً لم يهتم بأن يسأل المرأة ماذا تريد. ومع ذلك فكل واحد لديه تشخيص وحلول وأدوية. لكن المريض غائب، غائب عن الحضور أو غائب عن الوعي. مما يجعل تشخيصات المهتمين رسوماً في الهواء، أو تجريدات ذهنية تتحلل عند ملامسة الواقع.

اسمح لي أن أحاورك بصراحة، كما اعتدنا معاً منذ ربع قرن. أعتقد أن نزار قباني يحرر امرأة أحلامه من طغيانه. وأن كل كاتب عربي يرسم المرأة المتحررة على هواه... فالحديث عن المرأة المتحررة أشبه بحديث الكاتب عن فتاة أحلامه، وبطلات القصص او الأفلام الوردية. اذ أن المرأة العربية على صعيد الواقع الملموس تشاطر الرجل في أميته وجوعه وانسحاقه، فقضيتها لا تنفصل عن قضيته، اذا أردنا أن نكون جديين وليس من ثوريي الصالونات أو منظري المقاهي.

لا ضرورة ان نسأل المرأة ماذا تريد؟

فجميعنا لنا أمهات وأخوات وبنات وزوجات وحبيبات..

والظلم الواقع على المرأة ليس إشاعة.. أو خرافة.. أو لوحة سريالية..

إنه ظلم مرئيّ ومسموع.. ومعروض على شاشة حياتنا اليومية. كما أنه ظلم ثابت كالجبال والوديان والأنهار والصحارى في الوطن العربي.

واذا كانت المرأة العربية فاقدة النطق.. أو ممنوعة من النطق.. بموجب مرسوم أصدره الرجل. واذا كانت غائبة عن الوعي - كما تقول - فان هذا لا يمنع الطبيب من اكتشاف الرضوض والكسور والكدمات الزرقاء التي تغطي الجسد النسائي من ذروة الشعر الى أصابع القدمين..

تقول بصراحتك التي أحبها «إن نزار قباني يحرّر امرأة احلامه من طغيانه..»

وأنا أقول لك بالصراحة ذاتها التي عوّدتك عليها منذ ربع قرن:

نعم.. أنا أفعل ذلك.. لأنني ذَكَرٌ من ذكور القبيلة.. ولست سوبرماناً..

أو لورداً من لوردات حي مايفير في لندن.

أن القبيلة تحاصرني.. تطاردني.. ترغمني على تقبيل يد شيخ القبيلة..
وتمنعني من لقاء عذراء...

ولكنني سخرت من أخلاقيات العشيرة، ورفضتُ تقبيل يد شيخ القبيلة.. وتسلّلتُ الى خيمة عذراء من خلال التماع الخناجر.. ونباح كلاب الحراسة.

لم تكن هناك وقت لفتح محضر تحقيق مع عذراء، ولا تسجيل اعترافاتها على شريط فيديو..

ـ ان الكتاب الذين يحررون المرأة دون أن يأخذوا رأيها يقيمون برلمانا ينسون أن يدعوا اليه ممثلي الشعب. وأمثال هؤلاء المفكرين يصدرون قرارات تحل مشكلاتهم وليس مشكلات النساء. والا فقل لي، ماذا قدم الفكر العربي لقضية المرأة خلال قرن من المناقشات؟

تعليم المرأة؟ ان عدد الشواعر من النساء يضاهي في الجاهلية عدد الشعراء. وكذلك الأمر في صدر الاسلام. وكانت المرأة تتعلم وتثور منذ أيام الخنساء وهند بنت عتبة وليلى الأخيلية.

حرية المرأة في انتخاب زوجها؟ الشرع يعتبر الزواج عقداً لا يتم الا بموافقة الطرفين.

حرية المرأة في الحب؟ الحب العاطفي عرفته أوروبا مع الحركة الرومانتية في القرن الماضي فقط، مع بدايات التصنيع. والحرية الجنسية لم تعرفها أوروبا الا منذ الستينات، منذ عشرين عاماً فقط بعد اختراع وسائل منع الحمل ـ مما يدل على أن المجتمع هو المجتمع في كل مكان وزمان، وان الجموح طفرات استثنائية لا يعول عليها.

أي برلمان؟ أي مجلس شعب؟ أي مجلس شورى؟ أي كونغرس؟
إن الرجل العربي لا يسمح للمرأة أن تجلس معه على مائدة الطعام. فكيف يسمح لها أن تشاركه الرئاسة أو الوزارة.. أو تقاسمه الحكم؟

أنت بطرحك المشكلة بهذه الصيغة، تبدو كأحد المستشرقين الذين يحاولون ان يكتشفوا الشرق من خلال شرح ديوان ابن الرومي
وإذا كان الكُتّاب والمفكّرون يُصدرون قرارات تحلّ مشكلاتهم وليس مشكلات

النساء، فهذا جيّد.. لأن حلّ مشكلة الرجل تؤدي تلقائياً الى حلّ مشكلة المرأة.

لماذا لا نعترف بأن الرجل العربي هو مشكلة المشاكل.. فاذا تغيّر هو تغيّرت المرأة أوتوماتيكياً..

لا يمكن للمرأة أن تتحرّر في كَنَفِ رجلٍ عَبْد.. ولا تستطيع أن تتكلّم في ظلّ رجلٍ لا يعترف بالكلمة الأنثى..

أما ماذا قدّم الفكر العربي لقضية المرأة خلال قرنٍ من المناقشات، فأعتقد - وأنا أتكلّم هنا من زاوية الشعر - أنه قام بعملٍ تحريضي داخل سجن النساء..

وهذا بحدّ ذاته إنجاز. أما إذا فضّل بعضُ السجينات البقاء حيث هنّ.. لأنهن تعوّدن على العتمة، وتلاءمن مع الحيطان والقضبان، فهنّ المسؤولات عن ذلك، وليس الفكر أو الشعر..

أما تعليم القراءة والكتابة فهو يحلّ واحداً بالمئة من المشكلة ولكنه لا يحلّ كلّ المشكلة. فالحرية شيء.. ومحو الأمّيّة شيء آخر.. والقراءة في كتاب النحو والصرف شيء.. والقراءة في كتاب الحياة شيء آخر..

والدليل على ذلك، ان أكثر المتعلمات عندنا لا يزلن يناقشن شؤون الحب والزواج والمهر بمنطق أمهاتهنّ.. أو جداتهنّ.. ويفرضن على الرجل الذي يتقدم لخطبتهنّ ما لا تفرضه إسرائيل لإرجاع الأراضي المغتصبة.

إذن، لابد ان يحدث التغيير في جذر الحياة، لا في تفرّعها وهوامشها..

وقضية حرية الحب، أو حرية الجنس، هي تفصيلات تأتي في وقتها المناسب. أي في الوقت الذي يعترف فيه المجتمع العربي للمرأة بأهليتها وحقها في تقرير المصير.

عندما تأخذ المرأة موقعها كإنسان حرّ ومسؤول، وعندما يرفع الرجل يده عنها، نفسياً وجسدياً واقتصادياً فسوف ترتاح هذه القارة نهائياً من هذه الحرب

العلاقة الصليبية القائمة بين الذكورة والأنوثة .

لا الخناجر كانت تسمح بذلك .. ولا كلاب الحراسة كانت تسمح بذلك ..
وهكذا جاءت صرخات الكتّاب العرب عن حرّية المرأة متقطّعة .. متوتّرة ..
شخصيّة .. ذاتيّة .. عصبيّة ..

وهذا شيء طبيعي جداً ..

لأن المرأة لم تكن معنا .. وإنما كنّا نسترقها من شقوق الأبواب ..
كنا نخترعها .. ونُشكّلها كما يشكّل الفنان التشكيلي لوحته بقوة المخيّلة وألوان الحلم ..

وطبيعي جداً أن أرسم المرأة المتحررة كما أتصورها أنا .. وأن أحاول تحريرها من نفسي ومن أسناني وأنيابي .. أولاً ..

في قصيدتي « حُبلى » لا تسقط الشتيمة على رأس نزار قباني وحده ولكن على رأس كل الرجال .. وفي « يوميّات امرأة لا مبالية » تنهمر اللعنات على الذكور جميعاً .. بمن فيهم نزار قباني ..

إذن .. فأنا في كتاباتي لا أدّعي أنني مبعوث سماوي لأحرّر المرأة من قضبان سجنها .. لأنني أعرف جيداً أنني وإياها محبوسان في السجن ذاته .. والحكم علينا واحد .. والقاضي الذي أصدر الحكم واحد ..

وإذا كان الرجل لا يزال يتمتع بحكم الوراثة ببعض الامتيازات التاريخية ولا يزال يتباهى كالديك بصوته العريض، وريشه المنفوش، فإنه في الواقع ليس أحسن حالاً من دجاجاته ...

إن حرية المرأة هي حلقة من السلسلة الحديدية التي تكبّل الإنسان العربي من ميلاده إلى موته .. ومن أم القوين إلى طنجة ..

ولا يمكن كسر هذه الحلقة دون كسر بقية الحلقات التي تربط أقدام الانسان العربي ويديه وفكره كما تربط أحلامه وغريزته الجنسية.

إن النظام الاجتماعي العربي، ككلّ، بحاجة الى إعادة نظر.

وما فعلته أنا، وما فعله غيري، لم يكن سوى ثورة صغيرة على نظام حجري سلطويّ يحتاج تصحيحه الى ألوف الثورات الصغيرة.

- ومع ذلك فان الفكر العربي الرخو أخفق مرتين حين تعرض لقضية المرأة. كانت المرة الاولى حين فصل قضية المرأة عن قضية الرجل. لأن الحديث في الحرية حديث في الكلية. أقم مجتمعاً ديمقراطياً تجد أن النساء تمتعن بالديمقراطية في شؤونهن الخاصة كما يتمتعن بها في الشؤون العامة. أوجد مساواة حقيقية في الفرص بين المواطنين تلق النوابغ من النساء يزاحمن بالمناكب زملاءهن النابغين. وفي مجتمعات الانتهازية وقصر الفرص على أعوان السلطة تبدو النساء جزءاً من الرشاوى وسوء التوزيع. انهن يشاركن في اللعبة بسرعة.

وأخفق الفكر العربي مرة ثانية حين طرح مشكلة المرأة كاشكالية تبحث عن الحد الوسط: ينادي بحرية المرأة ثم يتراجع ليقول بأنها حرية تحدها التقاليد من الشمال والأعراف من الجنوب والعقل من الغرب والتراث او الاصالة من الشرق، ينادي بنزول المرأة الى ميدان العمل ثم يرتد ليذكرها بأنها أم وزوجة وأخت و... الخ. يطالب المرأة بالمشاركة في النضال ولكن ضمن حدود الطاقة والتطوع.

باختصار، ان الفكر العربي يسرق باليد اليسرى ما يسعى الى تقديمه للمرأة باليد اليمنى.

أنا متفق معك في ان لا انفصال بين قضية المرأة وقضية الرجل. وان الحديث في الحرية حديث في الكلّية.

إن غياب الديمقراطية هو أساس الخلل في المجتمع العربي. وما تذكره هو بدهيّات. وما ينطبق على السياسة ينسحب على الحب. وما دمنا عليلين سياسيا فنحن عليلون عاطفياً.. وعقلياً.. وجنسياً..

إذا كنّا عاجزين عن إقامة وحدة اندماجية أو فدرالية أو كونفدرالية بين دولتين عربيتين.. فكيف يمكننا إعلان الوحدة بين الرجل العربي والأنثى العربية

وكما الفكر العربي هو فكر انفصاليّ تجزيئيّ.. فئويّ.. فإن الفكر العاطفي والجنسي العربي هو فكر انفصاليّ وأنانيّ ونرجسيّ..

والعاشق العربي يفكّر بطلاق المرأة في لحظة زواجه منها..

وإذا كان الفكر العربي لا يزال مضطرباً ومبلبلاً وضائعاً في مواقفه من حرية المرأة، فلأنه لا يزال في النقطة الوسطى بين عصر الجاهلية وعصر الكومبيوتر. لا يزال يلبس ثياب الهيبيين من الخارج، ويلبس العمامة من الداخل..

ولن يجد الفكر العربي نفسه حتى يتخلّى عن باطنيته ونفاقه وعُقَده المستعصية، ويقول للمرأة بصراحة ماذا يريدها أن تكون له.. أميرة أم جارية؟ وردة أم ساندويشة يقضمها بأسنانه على الماشي..

- تقول في كتيب «عن الشعر والجنس والثورة»:

«ما لم نكف عن اعتبار جسد المرأة (منسفاً) تغوص فيه أصابعنا وشهواتنا، وما لم نكف عن اعتبار جسدها جداراً نجرب عليه شهامتنا، ورصاص مسدساتنا فلا تحرير اطلاقاً. ان الجنس هو صداعنا الكبير في هذه المنطقة، وهو المقياس البدائي لكل أخلاقياتنا التي حملناها معنا في الصحراء...».

يخطر لي، اذا سمحت لي، أن أرد على هذه السطور من عدة مستويات.

فلو أن المائة مليون ونيفاً من العرب تربوا في هارفارد وتخرجوا من أوكسفورد وعلموا في كامبريدج، لظلَّ في سلوكهم العاطفي شيء من الجموح، وفي سلوكهم الجنسي شيء من الشراسة، وفي سلوكهم التخيلي شيء من ألف ليلة وليلة حيث يستحوذ الذكر على كل امرأة في متناول يده. ان العرب هم العرب ولن يصيروا انكليز ولا فرنسيين. انني لا أجد هذا أمراً مربكاً نختجل به، فمن حقنا أن نكون مختلفين عن الآخرين. والمرأة العربية من جهتها لن تختار المتردد ولا المتأني ولا المتخنث. الغريب أنني في معظم ما قرأت عن الروايات والأشعار العربية لم أجد المرأة العربية التي أعرفها وتعرفها، حتى الكاتبات لم يمثلنها على حقيقتها. وبالتالي ضاعت خصوصية السلوك العاطفي الجنسي عند العرب في الأدب العربي الحديث.

ومن جهة أخرى فانه لم يوجد بعد مجتمع يبيح التحلل، وقضية وزير الدفاع البريطاني جون بروفيومو وعشيقته كريستين كيلر يتكرر عقابها في كل المجتمعات. ربما لأن الحضارة لا تنشأ الا عبر المحرمات، كما يقول فرويد.

يبدو لي من صيغة سؤالك، أنك من جماعة (ليس في الإمكان أبدع مما كان)، وأن العرب - جنسياً - هم أعظم أمة أخرجت للناس..

إسمح لي هذه المرة أن أرفض تحليلاتك وتخريجاتك وتعصبك العرقي لفحولتنا..

إن ألف ليلة، يا عزيزي، ليست كتاباً مقدساً نتعلم منه كيف يستحوذ الذكر على ألف امرأة وامرأة..

فهذا الموقف ليس حباً.. ولا جنساً.. ولا إرثاً قومياً - كما يوحي تحليلك - ولكنه مذبحة للجنس الثاني.. ومسلخ بكل معنى الكلمة..

إن قولك (إن العرب هم العرب) يشبه القول إن الحجر هو الحجر..
والمسمار هو المسمار.. والضبع هو الضبع..
وبذلك تضع العرب في قارورة وتحنط بالشمع الأحمر، وتنكر عليهم سنة التطور والتغير.. فكأنما الجنس الثاني - حسب نظريتك - هو عملية فتك وغزو..
ووليمة لا بد أن يكون فيها آكل ومأكول..

طبعاً أنا لا أطلب من العرب أن يكونوا انكليزاً.. أو سويديين..
وليس من طموحي أن أحول الربع الخالي.. إلى سيبيريا..
ولكنني أطالب بتغيير صيغة التعامل مع المرأة، وانهاء مرحلة الإقطاع في علاقتنا معها..

إنني أطالب (بأنسنة) العلاقة بين الرجل العربي والأنثى العربية، وجعلها أكثر شفافية وحناناً..

وإنني أختلف معك، حين تضع الرجل العربي أمام خيارين:
فإما أن يكون ضبعاً أو تمساحاً أو (بولدوزر) يطحن عظام المرأة،
وإما أن يكون مخنثاً..

إمّا أن يكون محمد علي كلاي .. أو يكون صوصاً لاحول له ولاقوة ..

إن الرجولة لاتكون بالدَّعْس والمَعْس وفكِّ الرقبة .. وإلا لكان الحواة سيّد العاشقين ..

ثم إن تمتع المرأة بحقها في التعبير عن أمانيها ورغباتها، والظهور مع حبيبها في الشارع العام، والتلفظ باسمه، لايعني أبداً التحلّل ..

وقضية (بروفيومو) التي أشرتَ إليها، لم يُعاقِب عليها القانون البريطاني لأنها علاقة حب بين رجل وامرأة (فليس في أوروبا شيء إسمه جريمة حب) ولكنه عاقب عليها لأنها علاقة بين وزير دفاع مسؤول عن أسرار الامبراطورية البريطانية واستراتيجيتها العسكرية .. وبين بنت هوى ..

إنني لستُ ضد (الخصوصية) التي تطالب بها للرجل العربي .. ولكنني أرفض هذه الخصوصية اذا كانت تشبه رخصة التنقيب عن البترول بين نهدي المرأة .. أو رخصة الصيد التي تعطيها وزارة الداخلية لصيد الغزلان ..

الرجولة، يا عزيزي، هي حركة حنان يأخذ فيها الجسد شكل القصيدة، وليست (بلطة) نقطع بها رأس المرأة في ليلة زفافها .. أو غزوة نحرق بها الأخضر واليابس .. تأكيداً لخصوصيتنا التاريخية .. أو القومية ..

أنت تتحدث عن (السلوك الجنسي عند العرب) وتقول إنك لم تجد المرأة العربية فيما قرأته من روايات وأشعار عربية ..

وبكل بساطة أقول لك إن السلوك الجنسي عند العرب هو سلوك الرجل وحده ..

أما المرأة فهي غائبة .. أو مُغيَّبة نهائياً عن التعبير العاطفي والجنسي ..

لأن الذكر هو الذي يحكم في الفراش .. وهو الناطق الرسمي في قضايا الحب ..

أما المرأة فهي (أكثرية صامتة) .. وإذا خانها لسانُها فعبّرت عن عواطفها أو عن شهواتها .. قلنا عنها إنها غانية .. أو لعوب .. أو بغيّ ..

فكيف تريد أن تسمع صوت المرأة اذا كان الرجل العربي يفضلها خرساء.. وبلهاء.. وأمّية.. ويخاف منها اذا تجاوزت في دراستها مرحلة (السرتفيكا)..

ـ أخيراً، أعترف لك، ان الجنس هو مشكلتنا جميعاً، رجالا ونساء. لقد تهدمت الأخلاقيات القديمة التي تحرم وتمنع، لكن المأساة أننا لم نستطع ان نحل محلها أي بديل... فماذا تقترح؟

العزاء الوحيد ان الأزمة العاطفية ـ الجنسية بأبعادها الفردية ـ الاجتماعية ـ التاريخية ليست الوحيدة التي تنتظر الحل، فهناك مشكلات الديمقراطية والوحدة والتصنيع والتعليم ومكننة الزراعة وهجرة الأدمغة والتراث والمعاصرة... كلها مؤجلة تنتظر الحل.

ولكن بالرغم من هذه العطالة التي ترافق الفكر العربي فان العرب يتكاثرون ويتناسلون. وبالرغم من الحروب الاهلية فان معدل الولادات أكبر من عدد الوفيات، بحمد الله... ألا يدل هذا على تراكم، ولو في عدد المشاكل؟

الأخلاقيات القديمة لم تتهدّم . لا عند الأميين ولا عند المثقفين..
فأبو زيد الهلالي لا يزال مرابطاً في كل مكان من حياتنا، حتى في الجامعات، ومراكز الأبحاث، والمؤتمرات الأدبية والحلقات الثقافية.

وقضية الحب، ككل قضايانا، لا تُحلّ إلا حين تُحلّ قضية الحرية في المجتمع العربي..

فلا يمكن أن يكون الجسد العربي حراً.. إلا اذا كان العقل العربي حراً.. والرأي العربي حرّاً.. والكلام العربي حراً..

والقمع الجنسي، كالقمع السياسي، كالقمع الاجتماعي، كالقمع الاقتصادي، هو إحدى حلقات السلسلة الحديدية.

أما التكاثر.. والتناسل.. فلا يعنيان في نظري أيَّ شيء.. لأن الأبقار في أوستراليا تتناسل وتتكاثر.. دون أن تشعر بالحاجة الى القيام بأي انقلابٍ أو ثورة....

نزار   بيروت ١٥/١٠/١٩٨٠